منتقيات من عناية المغاربة بالقرآن وعلومه
(العصر السعدي أنموذجا)

الطالب الباحث الطاهر لمزيري
المغرب

تقديم:

الحمد لله معلم القرآن، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحابته أولي البر والإحسان.

وبعد؛ فإن أولى ما تصرف إليه الهمم الوقادة والعزائم الوهاجة كتاب الله تعالى الذي هو أساس العلوم وقوامها، وقد دأب المسلمون عموما والمغاربة خصوصا منذ فجر التاريخ الإسلامي على العناية الوثيقة بكتاب الله تعالى، وظفروا بالريادة في ذلك على مر الأزمنة والدهور، واستجلبوا لصون هذه العناية النضِرة مرافد التحصين المتنوعة، فصدروا على عتبات الإتقان والضبط والإمتياز، وقد هيأ الله تعالى للترقي في درجات هذا القرآن وعلومه أئمة نجوما في ليل السرى، أنفقوا كل غال ونفيس للذود عن حياض هذا الكتاب تأليفا وإقراء، وسار اللاحق بسير السابق في ذلك، فبينوا غامضه، وفصلوا مجمله، وذللوا سبله لمن رغب فيه، ومنهم من صرف عنايته وهمته إلى بعضٍ من مسائل هذه العلوم علومِ القرآن، فبدت منها جهود رصينة تجيب عن إشكالات علمية وقضايا معرفية تُنظَم بها خيوط المسائل ورؤوس الفرائد، فكانوا هداة لطالب الهدى، أدلاء على الدين و على العلم أمناء، وقد جلى هذه الحقيقة العلامة الدكتور عبد الهادي حميتو بقوله : "**ولقد سبق لي أن نوهت بهذه الخصيصة في أطروحتي للدكتوراه، وذكرت أن لا أحد يستطيع أن يماري في نظري بحق في مجال تفوق المغاربة في حفظ القرآن والعناية البالغة بعلوم القراءة وإحراز قصب السبق في مضمار الرسم والضبط والمعرفة بوجوه القراءات وطرقها.**"[1]

ولا عجب أن يشهد للمغاربة بهذا السبق المكين غيرُهم، ومن ذلك ما قاله الإمامُ أبو العباس أحمد المقري التلمساني رحمه الله حيث قال: "**وقراءة القرءان بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة.**"[2]

وإذا كان اهتبال المغاربة بالعلوم الشرعية عموما أمرا بارزا؛ فإن قوة هذا الاهتبال تتجلى بشكل أكبر في الاعتناء بحفظ كتاب الله وعلومه تلاوة وضبطا ورسما وتجويدا وتفسيرا ...، علاوة على الشرح والتعليق والإختصار والتذييل ...، وسأجلي هذه العناية في مرحلة زمنية مباركة وهي عصر الدولة السعدية من خلال المبحثين الآتيين.

المبحث الأول: معالم من الحركة العلمية السعدية.

عرفت الدولة السعدية في الجانب العلمي والثقافي تحولات متنوعة، ففي بداية الأمر أخذت مدينة فاس الزعامة الثقافية والصدارة العلمية حتى عام (986 هـ)، ثم أخذت هذه الزعامة العلمية تولي وجهها شطر مدينة مراكش، فأضحت مثابة العلم والأدباء من المغرب والمشرق، واستمر الأمر إلى وفاة السلطان المولى المنصور الذهبي رحمه الله سنة (1012 هـ)، إلى وقت أفول شمس هذه الدولة سنة (1069هـ)، فاندثر كل ما خطه هذا السلطان المجاهد رحمه الله، وفي خضم هذه الأطوار علا كعب العلوم الشرعية وخاصة ما يتعلق بعلوم القرءان الكريم وخاصة بمراكش وسوس، يقول العلامة المختار السوسي رحمه الله عن حيوية القرن الحادي عشر :" **فكانوا**

سبب توطد الدولة السعدية، ثم جازتهم هي أيضا بدورها، فكان منهم أفراد بين الكتاب والشعراء الملازمين للعرش، والسفراء ورؤساء الشرطة، وقواد الجند، والحرس الملكي الخاص فزخرت سوس علما بالدراسة والتأليف، والبعثات تتوالى إلى فاس ومراكش، وإلى الأزهر، فكانت تثوب في ذلك العهد بتحقيقات اليسيتني، والونشريسي، وابن غازي، ونظرائهم، حتى كان كل ما يدرس في القرويين يكاد يدرس في سوس، قولة لا تنفح فيها وإنها لحقيقة ناصعة يقر بها كل مطلع (وما يوم حليمة بسر)."[3]، فعلى هذا النمط الدؤوب سارت أجواء الدرس العلمي المغربي، بشهود هذه الحقبة تعدد المراكز الثقافية في المدن والأرياف، وكثرة عدد الطلبة والعلماء والمشتغلين بالدرس العلمي[4]، وبسطت مع ذلك الدولة السعدية على علمائها الظل الوريف متخذة منهم لحاشيتها كتابا وشعراء وقوادا وسفراء.[5]

كما عرفت مراكش أيضا أنواعا من هذا الازدهار العلمي، ومنه كثرة مكتباتها العلمية، كمكتبة ابن يوسف، ومكتبة جامع الشرفا ومكتبة الحرم العباسي ومكتبة جامع الحرة[6]، والمكتبة الملكية بمراكش.[7]

وقد وفد على هذه المدينة أيضا عدد من العلماء الطارئين من داخل المغرب وخارجه، ويأتي في الطليعة علماء فاس، حتى لا تكاد تجد نابها منهم إلا وقد أقام مدة طويلة و قصيرة بمراكش ودرس فيها، أمثال أحمد المنجور السالف الذكر، وعبد الواحد ابن الحميدي، وأحمد الأزموري، وأبي القاسم ابن سودة، وأبي القاسم ابن أبي النعيم، وأبي القاسم ابن القاضي، وأحمد ابن القاضي، وعلي ابن عبد الرحمن السلاسي وغيرهم[8]، ووفد علماء آخرون من أقاليم مختلفة، كعبد الرحمن بن عمر البعقيلي مؤقت فاس ومنجمها الكبير، وعبد الله بن علي ابن طاهر الحسني عالم سجلماسة ومحدث المغرب الشهير، ومحمد بن أبي بكر التواتي الفقيه المحدث المشارك وغيرهم، وبعد هؤلاء وفد على المدينة قراء كثر ماهرون و منهم : محمد بن يوسف التملي، وتلميذه محمد بن محمد الرحماني المراكشي.[9]

ومن مظاهر هذا الرقي العلمي أيضا؛ اهتمام السعديين بتأسيس شبه مدرسة لتعليم الكتابة وخطوط الحروف وأشكالها، فشجعوا على نشاط الخطوط المتعارفة في البلاد من المغربي إلى الأندلسي إلى المشرقي على تعدد أشكالها كلها وتنوع أصنافها.[10]

كما أن الكراسي العلمية ازداد عددها وتضاعفت أهميتها مع السعديين، ككرسي (حرز الأماني) في القراءات بمسجد الشرفاء[11]، وقد هيأ سلاطين هذا العصر البيئة المناسبة لهذا الازدهار العلمي، فهذا السلطان أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله؛ كانت له عناية بالعلماء وبالجلوس معهم والأخذ في أطراف المسائل العلمية[12]، و محمد الشيخ الذي كان من قراء القرءان الكريم، ومن أهل العلم والدين، عارفا بالتفسير له كتابات في ذلك، واعتبر أول أمير سعدي كان يحفظ ديوان المتنبي كله[13]، وما حفظ رحمه الله ذلك الديوان إلا لميله الشديد للأدب الذي لم ينشب أن اصطبغت به الدولة السعدية، وكان سببا في نشاط التدريس والتعليم، حيث جدّد مسجد الجامع الكبير الذي طاله الخراب[14]، ووصولا إلى ولاية السلطان أحمد المنصور الذي نجد أن اعتناءه بالعلماء وأهل الفضل شيء ظاهر للعيان، فيجلهم كثيرا ويعظمهم ويعلم حقهم بين الناس[15]، وهذا ليس بغريب عن سلطان عالم تربى في أحضان العلم، فهو خليفة العلماء وعالم الخلفاء، ومع اضطلاعه بأعباء الملك كان مغرما بالدرس طول حياته، ينظم أعماله اليومية بدقة، فيخصص وقتا لمجالسة العلماء في القصر أو في المسجد، تارة يتدارسون التفسير والحديث في مجالس موسعة، وتارة يقرؤون البلاغة والمنطق والحساب والهندسة وما إليها من العلوم العقلية في مجالس لا يحضرها إلا القليل من المتخصصين[16]، وقد تهمم في المشاركة في جل العلوم والدراية بها، بل إن بعض الكتب التي لم يعتن بها المغاربة تكبد عناء فهمها ودرايتها، يقول الفشتالي: **"بدأ قراءته القرآن على معلم أولاد الملوك في الدولتين؛ الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يوسف الترغي، ثم قرأ بعده على الفقيه**

الأصولي أبي الربيع سليمان بن إبراهيم، ثم بدأ الرسالة على الفقيه أبي عمران موسى الروداني، وقرأها أيضا سردا ودراية على النحوي أبي العباس المنجور، وقرأ أيضا علم الحساب، وأخذ أيضا علم العربية على نحوي زمانه أبي العباس احمد القدومي صاحب الحواشي على المرادي، وأخذ اصول الدين على الامام ابي العباس احمد المنجور وسمع عليه مؤلفات السنوسي ...، حتى إنه فهم كتاب إقليدس في الهندسة بغير أستاذ لعدم وجوده بالمغرب، فكان كل يوم يفك شكلا من أشكاله، وله أيضا بعض معرفة بعلم التعديل والهيئة."[17]

كما ألف جملة من التآليف التي تدل على براعته وسيلان قلمه، وأبدت قريحته وفرة من الشعر المتين[18]، كما خلف رجلا عالما وهو ابنه زيدان، الذي كان أنبهَ إخوانه وأرجحَهم عقلا، فشارك في العلوم الشرعية واللغوية، وكان شاعرا رقيق الإحساس جيد التعبير، امتلأت مجالسه هو أيضا بالعلماء والأدباء، سواء عندما كان أميرا ينوب عن أبيه في إقليم تادلا ثم مكناس وفاس، أو عندما آل إليه الملك في مراكش، ومن تأليفه تفسير للقرآن الكريم مقتبس من تفسير ابن عطية والزمخشري.[19]

أما الإقراء والتصدر له؛ فقد كان سائدا عند جمع من الشيوخ والعلماء في هذا العصر، وفي طليعتهم الشيخ البوعناني الذي أمره السلطان المولى زيدان بذلك، قال القاضي ابن إبراهيم السملالي المراكشي في ترجمة الشيخ البوعناني رحمه الله، وهو يبين تصدره للإقراء بمدينة مراكش: "**وقفت للمترجم على فوائد ونظم، من جملة ذلك ما ذكره من إقرائه بمراكش، ونص ما كتب في ذلك : الشهر النبوي ربيع الأول، أوله يوم الجمعة، وهو بعد صفر الذي بعد المحرم مفتتح ثلاثة وعشرين وألف، دخل يعني الشهر المذكور علينا بالمدينة المراكشية بدار الحرة المعروفة بدار الخطيب بحومة المدرسة الشريفة بقرب جامع ابن يوسف، نازلين بها عن أمر الإمام الهمام وحيد دهره وفريد عصره مولانا أبي المعالي زيدان ابن الإمام المنصور المرحوم بالله، مولانا أحمد بن مولانا محمد الشيخ الشريف الحسني، وإقامتنا في كل يوم خمس أواق من بيت ماله عمره الله مع ولدنا محمد عبد الخالق بن محمد الحسني البوعناني، أقرأ معه خمسة مجالس؛ اثنان في مختصر خليل ومجلس في التوحيد واثنان في النحو مع جمع من طلبة أهل مراكش علم الله الجميع خيرا**".[20]

وقال العلامة الدكتور عبد الهادي حميتو متحدثا عن أحد أعلام العصر السعدي وهو الإمام أبو عبد الله التملي حيث أشار إلى بعض أقرانه الذين شاركوه في الإقراء والتدريس: "كما يفيدنا التقييد المؤرخ بشهر ربيع من عام (1023) أن الشيخ الشريف البوعناني قد انتدب للتدريس رسميا في هذا التاريخ وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، وذلك بعد أن انهى دراسته على المشايخ، بل وبعد أن أمسى والدا لولد كان في جملة من يقرأ عليه.

وهذا التاريخ الذي كان يدرس فيه لطلبة مراكش بدار الحرة بجوار ابن يوسف بمراكش، مقارب للتاريخ الذي تقدم أن الشيخ محمد بن يوسف التملي كان فيه يعاطي كؤوس القراءات مع طلبة هذه الحضرة، ويقرئهم الشاطبية والكراريس والتجويد بـ : " المدرسة الغالبية" المجاورة لدار الحرة."[21]

المبحث الثاني: عناية المغاربة عموما والسعديين خصوصا بالقرآن الكريم وعلومه.

إن المتأمل في السياق التاريخي لدخول الإسلام للمغرب؛ ليدرك بقوة مدى تمسك المغاربة بالقرآن الكريم، ويتضح ذلك بتفرد المغاربة بأحوال مع القرآن لم يتقاسمها معهم أهل بلدان أخرى، فقد دخل القرآن المغرب مع دخول الإسلام إليه، وتميز الفتح الإسلامي

للمغرب أنه فتح قرآني بعيد عن قوة السيف والسنان طبعت أغلب الفتوحات، ومن أسمى ما اهتم به الولاة الفاتحون في هذه المرحلة ترتيب الفقهاء والقراء يلقنون الناس القرءان و العربية، ويبصرونهم بالدين ويعلمونهم لغة التنزيل الذي هو دستور الإسلام وأقنومه[22]، وليس ذلك بغريب عن فِعالهم، فهذا عقبة بن نافع[23] كان يتحدث بالقرآن في كل أحواله، و قصده من ذلك تثبيته في قلوب الناس حتى يستقيموا بهديه، وخير شاهد على ذلك ما وصى به أبناءه قائلا : " **يا بني، إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملؤوا صدوركم شعرا وتتركوا القرءان، املؤوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله** ..."[24]، ولتحقيق هذا الهدف ترك عقبةُ صاحبَه شاكر بن عبد الله الازدي بالمغرب الأقصى يعلم البربر القرآن[25]، و أنزل عمر بن عبد العزيز بإفريقية والمغرب عشرة من الفقهاء يعلمون الناس القرآن، ومثله فعل موسى بن نصير[26] الذي اختار من جنده بضعة عشر رجلا من الفقهاء القراء، وندبهم إلى سائر الجهات ينشرون تعاليم الإسلام، ويشيعون بين الناس حب القرآن والتشبث بأهدابه، ولقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح، فلم تمض غير فترة قصيرة حتى رسخت العقيدة الإسلامية في النفوس، وتوطدت أركان الإسلام، ورفرفت راية القرءان في ربوع إفريقية.[27]

وقد اشتهر على ألسنة حفاظ القرآن قولهم: "**نزل القرءان الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأه المصريون، وكتبه الأتراك، وفسره الفرس، وحفظه المغاربة.**"[28]، فكانت للمغاربة خصيصة لا يضاهيهم فيها أحد، إذ برزوا منذ فجر التاريخ الإسلامي في ميدان حفظ القرآن الكريم، وأحرزوا قصب السبق في إتقان علومه، والحذق البليغ في رسمه وضبطه وقواعد تجويده وأدائه، والمعرفة بطرقه ورواياته.[29]

وهذا تفوق ترسخ أكثر عند المغاربة منذ عصر دولة الفقهاء دولة المرابطين التي قامت على جهود عبد الله بن ياسين الذي أقام في بلاد صنهاجة يعلم الناس القرآن.

وهذا الِاستبدادُ والِاستقلال بالقرآن الكريم وعلومه لم يأت عبثا، بل هيأ له المغاربة أسبابه التي أسهمت في تثبيت هذه العناية، ومن جملتها الحرص على بناء المساجد وتشييد الكتاتيب، لما لها من تأثير عام في مجال القراءة والتعليم، يقول العلامة الدكتور حميتو متحدثا عن بدايات الفتوحات: "**والمتتبع لحركة إنشاء المساجد لهذا العهد في البلاد المغربية المفتوحة؛ يلاحظ تلك العناية البالغة التي لقيتها في العهود الأولى مع قلة الإمكانيات وضعف الموارد، هذا إلى جانب المساجد الخاصة التي كان يقيمها المتطوعون، ويجعلون منها في الوقت نفسه محاضر لتعليم القرآن.**"[30]

ومع تقدم الزمن، وتمكن القرآن من قلوب المغاربة، فكروا في إقامة ما يسمى بـ: (الحضار)[31]، الذي يعد أسمى خصيصة تميز بها التعليم القرآني المغاربي.

وقد ذكر أبو العباس بن عذاري المراكشي عن الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله؛ أنه جعل إقامة الكتاب ضمن أولويات إصلاحاته، فمن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله : اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرءان حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة[32]، كما كان يحبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء.[33]

وكان من دواعي الإستكثار من هذه المكاتب والمحاضر؛ ازدياد الرغبة في تعميم هذا التعليم، والوصول به إلى جميع الجهات والأطراف[34]، وكان من حسن فِعالهم وضع هذه الكتاتيب على هيئات تساعد على الاستفادة منها، فكان لها مكان وشكل ووصف، وأقاموا لها مناهج تدريسية صارت معتمد المعلمين قديما وحديثا لا يعدل عنها إلى غيرها لما لها من عود محمود ومردود جلي[35]، فكانوا يفصلونها عن المسجد في بعض الأحيان حتى لا يشوش المتعلمون على المصلين، أو حتى لا يتم إتلاف شيء من مرافق المسجد، أو إحداث تنجيس فراش المسجد لقلة احتياط الصبيان.[36]

وكان لا يُقْدِم على عملية التعليم إلا الأكفاء المتخصصون في طرائق التعليم، الذين يكون لهم من العلم المتين والخلق القويم ما يخَول لهم ممارسة هذه المهنة عن استحقاق لأنهم صناع جيل[37]، وهذا ما كان معروفا في الأوساط التعليمية في سالف الأمر، فقد كان المعلم أو المربي مستحضرا للرقابة الإلهية في كل تصرفاته، يباشر عمله بجد وصرامة، وقد أرسى هذا الإمامُ محمد بن سحنون في رسالته المغربية التي تعالج قضية تعليم الصبيان في هذه الكتاتيب، وعقد فيها جانبا مهما لما يجب استحضاره في عملية التعليم.[38]

أما مذهب المغاربة فيما يتعلق بالمتعلم، فلا بد عندهم أن يلج الكُتابَ وهو في مقتبل العمر عند ما يعقل، وغالبا ما يكون ذلك في سن الخامسة أو السادسة، وربما بدأ بعضهم في الرابعة أو السابعة[39]، يبدأ بحفظ الحروف الهجائية (أَلِفْبَا)، ويتدرب على ذلك نطقا إلى أن يتمكن منه لسانه، ومن جملة ما يتعلمه في هذه المرحلة : تعلم الكتابة على اللوح عبر ما يسمى في عرف الكتاتيب بـ : (التحنيش)[40]، وبعد أن يضبط ذلك؛ يشرع في حفظ السور القصار، يقرأ المعلمُ الآية والآيتين، فيرددها الطفل حتى يحفظها، والشأن أن يكون لكل صبي لوح يكتب فيه ما يريد أن يحفظه، فإذا حفظه محاه ليكتب شيئا جديدا، وهكذا يتدرج في حفظ الآيات والسور حتى يختم القرءان، ثم يعود مبتدئا السلكة من أول البقرة بربع الحزب أو نصفه، حسب استعداد الطفل وذكائه، وتتكرر السلك والختمات حتى يحفظ القرءان جيدا[41]، يقول الأستاذ محمد حجي عن أجواء تحفيظ كتاب الله للناشئة في العصر السعدي: "**ظل الحفظ متفشيا في المغرب طوال العصر الذي ندرسه**[42]، **إذ كان الأطفال يبدؤون في سن مبكر بحفظ الحروف الهجائية قبل التعرف على أشكالها في الألواح، ثم يحفظون فاتحة الكتاب فسورة الناس فسورة الفلق، ولا يزالون يوالون حفظ سور القرآن من أسفل إلى أعلى حتى يحفظوه كله عن ظهر قلب، وتتكرر الختمات، فتصل إلى عشرين أو تزيد، يحفظ المتأهلون من الأطفال أثناءها بعض الروايات المختلفة في قراءة القرءان و (الكراريس)**[43]."[44]

ولجودة عطاء هذه الكتاتيب التي أنتجت لنا قراء ممرسين، أفتى بعض العلماء بضرورة إنشائها وإقامتها، وأن ذلك من جملة الواجبات التي تتحتم على كل من سكن موضعا ما، وممن أفتى بذلك أبو عمران الفاسي، وأبو عمران الرجراجي رحمهما الله، قال أبو علي الشوشاوي: "**وأما من الذي يجب عليه شرط المعلم؛ فيجب على كل من سكن ذلك الموضع، كان أصلا أو طارئا، قاله أبو عمران القابسي في التعاليق، وأبو عمران الرجراجي.**"[45]، وقال أيضا: "**وأما من الذي يعقد الإحضار من أهل الموضع فقال أبو عمران الفاسي في التعاليق : الذي يعقد الإحضار هو السلطان أو القاضي أو جماعة من الناس، فإذا عقدوه فالشرط لازم لجميع أهل الموضع، ويُنَكل بمن امتنع من تسليم ولده إلى المكتب.**"[46]

وإذا أتم الطالِبُ حفظ القرآن برواية ورش، جمع إليها رواية قالون في ختمة أو أكثر مما يتأتى حفظها فيه؛ فإذا حفظ حرف نافع، جمع إليه حرف عبد الله بن كثير من روايتيه في ختمة أو أكثر؛ فإذا حفظ حرفيهما، جمع إليهما حرف أبي عمرو البصري من روايتيه

أيضا في ختمة أو أكثر كذلك؛ فإذا حفظ الأحرف الثلاثة؛ جمع إليها الأحرف الأربعة الباقية من رواياتها الثمان دفعة واحدة، وينتهي إلى حال يرضى بها عن نفسه؛ أو يرضى له بها شيخه، ويأذن له في الإقتصار أو التعليم إن رآه أهلا لذلك.(47)

وكان يتخلل عملية التدريس هذه شيئ من الراحة حتى لا يمل الطالب ولا يكل، وهذا من معالم التدريس عند المغاربة وكان كذلك في العصر السعدي، فكان المربون فيهم ينصحون باحترام عطلة يوم الخميس والجمعة من كل أسبوع، وفي ذلك قال تلميذ الإمام أبي عبد الله التملي، الشيخُ محمد بن سعيد المرغتي:

أَلَا يَا نَسِيمَ الأَرْبِعَاءِ الذِي سَرَى	عَشِيَّته أَمْهِلْ يُسَائِلْكَ طَالِبُ
لَعَلَّكَ عَنْ يَوْمِ الْخَمِيسِ مُخَبِّرٌ	فَشَوْقِي إِلَيْهِ حَاضِرٌ وَهْوَ غَائِبُ
فَتُخْبِرَ هَلْ فِي بَالِهِ أَنْ يَزُورَنَا	عَلَى أَنَّهُ لَوْ زَارَنَا فَهْوَ ذَاهِبُ
يُحَيِّي هُبُوبٌ مِنْكَ غُصْنُ اسْتِرَاحَةٍ	فَيَهْتَزَّ لِلتَّسْلِيمِ وَالرَّدُّ وَاجِبُ. (48)

ومن تم كانت عناية المغاربة بالقرآن الكريم عبر التاريخ عناية فائقة منيفة، فأتقنوا رسمه وضبطه، وتجويده وقراءاتِه، وسيطروا على هذا الميدان سيطرة تامة، حتى لا يكاد يسبقهم فيه أحد، فكان في المغرب جمهرة كبيرة من العلماء القراء، أثروا المكتبة الإسلامية ببحوثهم ومؤلفاتهم في علوم القرءان وفنونه، واختصوا مقرأ نافع بدراسات مستفيضة، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة فيه إلا أحصوها، نقطه وشكله و رسمه وضبطه و تجويد وأداءه ووقفه وابتداءه وأصوله وزوائده، وتناولوا كل فرع من هذه الفروع بالشرح والبيان، وربما خصوه بالتأليف المستقل، وهي خدمة كبرى للقرآن الكريم، لا ينساها لهم التاريخ.(49)

وبهذا نعلم يقينا أن المغاربة عموما والسعديين خصوصا كانوا بحق ولعين بالقرآن وعلومه غاية الولع، متمكنين من علومه حق التمكن، وقد كانت سوق القرآن وعلومه رائجة في هذا العصر بقوة حتى قدرت أن تنجب فطاحل تعتني غاية العناية بالقرآن ومتعلقاته.

خاتمة:

بعد عرضِ ما تيسر عرضُه من العناية المغربية والسعدية بالقرآن وعلومه؛ أكون قد خلُصت في ذلك إلى أن الجهود القرآنية المغربية السعدية جهودٌ جبارة لها إسهامها الوازن داخل الحقل التعليمي القرآني، وهذا راجع إلى علو كعب شيوخ هذا العصر في فن القراءة والأداء، وهذا قد أنتج لنا جانبا علميا متكاملا وافرا داخل المكتبة العلمية القرآنية حتى صار هذا الجانب محاطا بالصيانة من الركود والإدبار.

ولا أزعم أني أحطت في ما كتبته بكل ما عُلم عن المغاربة عموما والسعديين خصوصا، وحسبي أني بذلت قصارى جهدي في بيان ما تيسر بيانه من كل ما يتعلق بهذا العمل، وأوصي نفسي والباحثين بوضع لبنات أخرى تكشف اللثام عن باسق الجهد الخفي والسيرة الغنية بالعطاء للأعلام البارزين والمغمورين في هذه الحقبة الزمنية المهمة داخل الحقل القرائي، فلهم من الجهور الكنوز ما يحمد ولا يخبر، والمتمثل في المصنفات والمنظومات والشروح والتقاييد...، فهذا العصر وعاءٌ لَمَّ عصارة قرائية كبيرة، وذلك ببيان سيرتهم وسريرة مؤلفاتهم وشيوخهم وتلاميذهم.

الهوامش:

1 . حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، (51/1).
2 . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (221/1).
3 . سوس العالمة، ص: 20.
4 . الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، (339/2).
5 . إيليغ قيدما وحديثا، ص: 29.
6 . الحركة الفكرية في عهد السعديين، (185/1).
7 . نفسه، (190/1).
8 . الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، (382/2).
9 . الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، (382/2 . 392).
10 . ينظر: تاريخ الوراقة المغربية لمحمد المنوني، ص: 75 . 76.
11 . الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، (191/1).
12 . درة الحجال في غرة أسماء الرجال، ص: 248 . 249.
13 . سوس العالمة، ص: 60.
14 . خلال جزولة، (148/4)، المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المدرسة الإلغية بسوس نموذجا للدكتور المهدي بن محمد السعيدي. ص :54.
15. المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لأحمد بن القاضي المكناسي، ص: 383.
16. الحركة الفكرية، (386/2)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص: 209، القراء والقراءات بالمغرب، ص: 85.
17. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الافراني، ص: 209 . 211.
18. نفسه، ص: 217.
19 . الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، (2 /401- 402).
20 . الإعلام للمراكشي، (279/5).
21 . قراءة الإمام نافع عند المغاربة، (299/4).

22 . النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، ص: 41.

23 . عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن طرف بن الحارث بن فهر، ولد قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة، وكان خير والٍ وخيرَ أمير، مستجابَ الدعوة كثير الفتوحات، رجلا ذا بصيرة وصلاح وهمة، وتوفي عُقبة رحمه الله بعد حياة مليئة بالجهاد في سبيل الله ونصرة دينه والعزم على اقتحام مضمار الفتوحات.

ينظر: البيان المغرب في اختصار أخبا ملوك الأندلس والمغرب، (46.43/1)

24 . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي المشهور بالدباغ، ص: 48.

25 . البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، (1/ 70)، القراءات بإفريقيا من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري لهند شلبي، ص: 38.

26 . النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص: 42.

27 . القراء والقراءات بالمغرب لسعيد أعراب، ص: 07.

28 . حياة الكتاب وأدبيات المحضرة للعلامة الدكتور عبد الهادي حميتو، (51/1).

29 . معالم في تاريخ القرآن الكريم بالمغرب للعلامة الدكتور عبد الهادي حميتو، ص: 13.

30 . قراءة الإمام نافع عند المغاربة، (1/ 46).

31 . الحضار: اسم المكتب أو الكتاب أو المسيد الذي يجتمع فيه الصبيان لتعلم القرءان.

32 . البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، (226/2).

33 . المصدر نفسه، (237/2).

34 . ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، (54/1).

35 . هذه المناهج مستمدة من فِعال الأقدمين والآخرين ومصنفاتهم، وقد أُلفت في هذا المنحى المؤلفات الكثيرة، والتي منها كتاب : "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"، لأبي الحسن علي القابسي، وكتاب : " أداب المعلمين"، للإمام محمد بن سحنون، الذي كان عمدة زمانه في ميدان تعليم الصبيان، و من كتب المتأخرين : كتاب : "جامع جوامع الإختصار والتبيان، فيما يعرض بين المعلمين آباء الصبيان"، لأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة المغراوي المعروف بـ : (شقرون)، وقد تحدث عن ذلك بتفصيل أيضا أبو علي الشوشاوي في : "الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة"، ينظر، ص : 285 وما بعدها.

36 . ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، (54/1).

37 . ذكر طرفا من هذه الآداب ابن الحاج في: "المدخل"، (305/2 وما بعدها).

38 . الكتاتيب القرآنية، الآليات، الأهداف، الآفاق، (20/1).

39 . القراء والقراءات بالمغرب، ص: 09.

40 . ما يكتبه المعلم (الطالَبْ) للتلميذ (المِحْضَار)، من حروف وكلمات بمؤخر القلم على اللوح، ويحاول التلميذ تتبع ما سطره معلمه بقلمه، والقصد من ذلك أن يعتمد على نفسه في كتابة لوحه ثم يستمر على ذلك حينا من الدهر، فيتعلم كتابة لوحه دون اعتماد على تحنيش الشيخ، ويستعمل بعضهم مصطلح (التحنيش) بمعنى الإنتقال إلى حفظ القراءات الأخرى بعد أن يختم الطالب رواية ورش ويضبطها. ينظر: القراء والقراءات بالمغرب، ص: 207.

41 . القراء والقراءات بالمغرب، ص: 09.

42 . يقصد التعليم في العصر السعدي، ينظر: الحركة الفكرية، (78/1).

43 . المراد المؤلفات الأولية في الرسم والضبط والتجويد، وهي عبارة عن نصوص غالبها منظوم، يكتبها الشيخ المعلم للطالِب تحت وجه لوحه، وقد تكون منثورة أيضا، و يدخل فيها ما يسمى في عرف الطلبة بـ: (الخْوانَات) أو (الوَزْنيات)، وهي كلمات تشترك في جزء من حروف الكلمة، ليستحضر الطالب بالكلمة (الأخت) حكمَ غيرها من حذف أو إثبات ...،كل ذلك يتعلق بكيفية رسم كلمات وحروف القرءان، وأحيانا قد تجمع هذه النصوص فوائد من مبادئ الدين واللغة العربية، والغاية منها ضبط الطالب لما يحفظه ويدرسه، حتى يتمكن منه ويستحضره. ينظر: القراء والقراءات بالمغرب، ص: 56.

44 . الحركة الفكرية، (84.83/1).

45 . الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، ص: 291.

46 . المصدر نفسه، ص: 291 . 292.

47 . القراء والقراءات بالمغرب، ص: 59، ويداوم الطالب في رحلته القراءاتية هذه على النظر في بعض الرمزيات التي تخص الحرفين (حرمي)، أو قراءتهما مع قراءة البصري (سما)، أو القراءات السبع، فتكون مرجعَه ينظر إليها بين الفينة والأخرى، وغالبا ما يرجع إليها إن اختلط عليه أمر ردفة في حال القراءة بالجمع والإرداف على شكله المركب المعروف عند المغاربة.

48 . العوائد المزرية بالموائد، (1/137 . 138).

49 . مقال الأستاذ سعيد أعراب، "بين يدي مصحف الحسن الثاني"، دعوة الحق . العددان: 184/185.